الفصل التاسع

علاقات مصر بالسودان في عهد الدولة الوسطى

رأينا فيما سبق المجهود الذي بذله ملوك الأسرة الثانية عشرة في إخضاع القبائل الثائرة والأقوام التي كانت تُغِيرُ على التجارة المتبادلة بين القطرين، وكيف أن ملوك هذه الأسرة قد مهدوا السبيل لاستتباب الأمن بإقامة المعاقل والحصون في مختلف جهات بلاد النوبة من أول «الشلال الأول» حتى «الشلال الثالث». غير أن إقامة الحصون وتزويدها بالجنود المصريين ليدل دلالة واضحة على أن الأمن لم يكن مُسْتَتِبًّا في بلاد السودان على الوجه الأكمل، بل على العكس يدل على أن المصريين كانوا يخافون شر هجمات القبائل المُعادية، وتدل شواهد الأحوال على أنه كان بجوار هذه الحصون بعض المستعمرات ولكنها لم تُبْحَثْ حتى الآن بحثًا كافيًا يمكن به استنباط حقائق مقررة، هذا إلى أن مدن الدولة الحديثة التي أقيمت على أنقاض هذه المستعمرات مثل «عنيبة» و«بهين» قد خُرِّبَتْ كذلك ولم تُحْفَظْ لنا من هذه المؤسسات إلا بعض بيوت في حصون الشلالات وقد فحصت.

والواقع أن هذه المستعمرات أو المؤسسات لم تكن مراكز سكن مريحة بصورة مرضية، وذلك لأنه لم تكن هناك أراضٍ خصبة صالحة للزراعة بجوار هذه المؤسسات؛ وعلى ذلك فليس من السهل أن نستخلص نتيجة أكيدة من بقايا المباني التي حُفِظَتْ لنا حتى الآن عن استعمار المصريين لبلاد النوبة السفلى في عهد الدولة الوسطى، ومن المحتمل أن الإضافات التي عُمِلَتْ في حصن «عنيبة» إلى أن أصبحت مدينة صغيرة قد تكشف لنا الغطاء عن الحقيقة القائلة بأن المصري قد هاجر إلى بلاد النوبة السفلى واستوطن هناك، وأن الحال كانت مثل ذلك تمامًا في «بهين» إذ نجد غير حصن الدولة الوسطى مؤسسة كبيرة نسبيًّا يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرة الثامنة عشرة وتقع تحت مباني المعبد الذي أقامه «أحمس الأول» وتتفق اتجاهاتها مع اتجاهات الحصن القديم[1]

والطبقة التي وجدت فيها جدران هذه المؤسسة تقع على علو ٧٠ سم من أساس حصن الدولة الوسطى، وعلى ذلك يظهر أنها أحدث من الأخيرة، وقد أقيم هذا الحصن القديم في أوائل الأسرة الثانية عشرة ويُحتمل في عهد الملك «سنوسرت الأول»، وعلى ذلك تنتسب هذه المؤسسة إلى الزمن الذي يلي الأسرة الثانية عشرة، ومن ثَمَّ لا توجد جدران حصون من عهد الدولة الوسطى، والظاهر أنها تقع خارج الأراضي التي يحجبها السور، ولا بد إذن أنها قد بُنِيَتْ في وقت كانت فيه العلاقات الودية على ما يرام، ولم يكن المصري يخاف وقتئذٍ شَرَّ أي هجوم من النوبي.

وقد لاحظنا أن نظام إقامة الحصون في عهد «سنوسرت الثالث» عند الشلال الثاني هو لتأمين الحدود الجنوبية من إغارة النوبيين، ولذلك فإنه عُدِّل تعديلًا تامًّا، وتدل شواهد الأحوال كما ذكرنا من قبل على أن العهد الذي تلا حكم «سنوسرت الثالث» كان على ما يظهرُ عهدَ سلام ووئام. ومن المحتمل إذن أن المباني التي نحن بصددها قد أقيمت في هذا العهد، وهذا يتفق تمامًا مع ما نشاهده من أن معظم المقابر القديمة في «بهين» تُنْسَبُ إلى هذا العهد وهذا يشير إلى ازدهار هذه المستعمرات.

ومما عُثِرَ عليه في المقابر المصرية التي أُقِيمَتْ في بلاد النوبة السفلى نستنبط أن المصري كان يكره لنفسه بدرجة عظيمة أن يُدْفَنَ جثمانه في بلاد أجنبية، وقد كان من نتائج ذلك أن أجسام موتى كل أصحاب اليسار كانت تُنْقَلُ إلى أرض الوطن، ولدينا أدلة على ذلك مدونة في عهد الدولة القديمة، وكذلك من عهد الدولة الوسطى، ونذكر على سبيل المثال قصة «سنوهيت»[٢] الذي كان جُلُّ ما يتمناه أن يعود إلى أرض الوطن ويُدفن جثمانه فيها. وفي عهد الدولة الوسطى كانت بلاد النوبة لا تزال محتفظة بطابعها الذي يدل على أنها كانت بلادًا أجنبية مخيفة، وأول مقابر هامة ظهرت فيها يرجع تاريخها إلى عهد نهاية الدولة الوسطى، ونجد مقابر الدولة الوسطى فيها فردية وفي جهات قليلة، وجميع أصحاب هذه المقابر على وجه عام نكرات فلا نعرف شيئًا عن مكانتهم أو ألقابهم، ومع ذلك نعرف شيئًا عن سلسلة أفراد من المصريين الذين استوطنوا بلاد النوبة السفلى من النقوش العديدة التي دُوِّنَتْ على صخور هذه البلاد، ومن الصعب تأريخ معظم هذه النقوش، ولا نعلم شيئًا عن الأسماء التي جاء ذكرها على هذه الصخور أكان أصحابها مجرد عابرين لبلاد النوبة أم مقيمين فيها، ويلحظ أن الكاتب الذي دَوَّنَ هذه النقوش كان يقصد ذكر اسم بلاده كما حدث ذلك في حالة كاتب جنود «إلفنتين».[٣]

ولدينا في مصر نفسها نقوش كثيرة تذكارية — خلافًا لما ذُكِرَ من قبل عند الكلام على السياسة الخارجية — تدل على أن كثيرًا من المصريين قد أُرْسِلُوا في مأموريات إلى

بلاد النوبة، فمثلًا يقول رجل من مدينة «إلفنتين» كان قد قام بدور هامٍّ في سياسة البلاد الجنوبية كما كانت الحال في عهد الدولة القديمة: «لقد قمت بحملات عدة مصعدًا في النيل نحو «بلاد كوش» فلم تحدث مني غلطة، ولم يقع أي سوء».[٤] وكان يُلَقَّبُ فضلًا عن ذلك «حارس النوبيين» وقص علينا كذلك نائب حامل الخاتم على لوحة تذكارية من «العرابة المدفونة» أن الملك أرسله لفتح بلاد كوش،[٥] ومما له علاقة بهذا الموضوع ما جاء في مقدمة قصة الغريق وفي نهايتها يقول صاحب القصة إنه كان في رحلة إلى بلاد «واوات» غير أن ذلك فيه شك كبير.[٦]

ولدينا من عصر متأخر عن العصر الذي نحن بصدده الآن نقش وُجِدَ في «إدفو» يذكر فيه مشرف على المدينة أنه ذهب إلى «أورايس» في الشمال و«كوش» في الجنوب.[٧]

هذا ولدينا مشرف على الجنود آخر يُدْعَى «نيسو منتو» ولقبه هذا يدل على نشاطه في بلاد النوبة.[٨]

ولا بد أن نسلم هنا بأن كل المصريين الذين ذكروا على الآثار كانوا يقومون بتأدية مهام خاصة في بلاد النوبة وكان كثير منهم يتخذها موطنًا ويعمل فيها.

وقد كان من الطبعي أن نجد من نتائج استيلاء المصريين على بلاد النوبة نقوشًا كثيرة لرجال الحرب والموظفين هناك. فوُجِدَ في طوابع الأختام التي عُثِرَ عليها في جزيرة «ورنرتي» بعض تابعين كانوا يشغلون نفس المنصب الذي كان يشغله «سبك خو» الذي تحدَّثنا عنه من قبل، وأمثال هؤلاء التابعين نجد أسماءهم على النقوش الصخرية. هذا ولدينا كذلك لقب المشرف على التابعين، وهذا اللقب على حسب نقوش «سبك خو» الصخرية (وهي التي عُثِرَ عليها في «قمة» و«سمنة») يعد أعلى رتبة وكذلك لقب «المشرف على الجنود»[٩] قد وجد في أحد نقوش «سنوسرت الأوَّل» في «بهين»،[١٠] هذا وفي المحاجر الواقعة في الشمال الغربي من «توشكى» نقش لقب «المشرف على المجندين» في عهد «أمنمحات الثاني».[١١] وكان حامل اللقب الأخير يُلَقَّبُ كذلك المشرف على بَيْتَيِ الفضة (= الخزانة) وعلى بَيْتَيِ الذهب. ومن المحتمل أن بعض الذين يحملون لقب «المشرف على السفينة» ينسبون إلى الدولة الوسطى أو الدولة القديمة كما يرى في النقوش المدوَّنة في «هنداو» وفي «الأمبر كاب» وفي «جزيرة سروس»، حيث نجد فضلًا عن ذلك منقوشًا لقب «كاتب السفينة».[١٢] وأخيرًا وُجِدَ على طابع خاتم في «ورنرتي» اسم موظف يحمل لقب «المشرف على الرماة» ومن المحتمل أنه كان يشغل وظيفة قائد الجنود في بلاد النوبة.

ولا يمكن أن نستخلص شيئًا عن نظام الإدارة من النقوش السالفة الذكر لأننا لا نعلم مَنْ مِنْ هؤلاء الموظفين يُنْسَبُ إلى بلاد النوبة، فنعلم أنه كان يوجد في «سمنة»

موظف يحمل لقب «حاكم المركز».[١٣] وينبغي علينا أن نعلم أن بلاد النوبة كانت مُقَسَّمَةً من حيث المقاطعات قسمين أو أكثر، وكان لكل واحد من هذه الأقسام مشرف يحمل لقب «المشرف أو الحاكم على المركز».[١٤] وقد وُجِدَ مذكورًا على نقوش المحاجر الواقعة في الشمال الغربي من «توشكى»[١٥] لقب «المشرف على قسم قطع الأحجار» (؟).

ومن بين الوظائف العالية المصرية التي وجدناها في بلاد النوبة لقب أعظم العشرة للوجه القبلي وقد وُجِدَ منقوشًا في «أمدا»؛[١٦] وكذلك لقب «فم نخن» (نائب نخن) في «سمنة»[١٧] ولقب «المشرف على مائدة الملك» في نقوش «جرف حسين»[١٨] وفي «سمنة».[١٩]

ومن المحتمل أن ألقابًا مثل «مدير البيت»[٢٠] و«موظف البيت»[٢١] و«المشرف على المحكمة» و«مدير مكتب الإدارة»[٢٢] يمكن أن تكون من الألقاب الإدارية الخاصة بحصون بلاد النوبة ومركز الحكومة الاستعمارية.

وأخيرًا نعرف كذلك سلسلة من الأشخاص الذين يحملون ألقابًا تدل على أعمالهم مثل «الحاجب» و«قاطع الأحجار»،[٢٣] ووُجِدَ لقب «طبيب» في نقش «بباب كلبشة»،[٢٤] كما وُجِدَ أسماء موظفين كثيرين في جهات متفرقة في «جرف حسين» و«ورنرتي» و«باب كلبشة» و«مودنجار» (Mudinjar). وكذلك نجد أن صاحب القبر (k.8) في «بهين» يحمل لقب «بستاني».[٢٥] يُضَافُ إلى ذلك أسماء كُتَّابٍ عديدين جاء ذكرهم في نقوش الصخور، غير أنها لا تلقى أي ضوء كبير على علاقات مصر ببلاد النوبة من جهة النظام في عهد الدولة الوسطى، ومع ذلك نذكر بعضهم هنا. فقد وجدنا اسم كاتب لبيت المال في نقوش «جرف حسين»،[٢٦] وهنا نجد كذلك اسم «كاتب للبلاط لقيادة العمل» (؟) وفي «البقع» نجد نقشًا لقاضٍ يحمل لقب «المشرف على الكتاب».[٢٧]

ومن كل ما سبق نفهم أن المصري كان يهاجر إلى بلاد النوبة السفلى على الأقل في نهاية الدولة الوسطى، غير أن ذلك لم يكن في نطاق واسع، هذا مع العلم بأن المصري كان لا يسكن إلا في الأماكن المحصنة، لأنه عثر في هذه الأماكن على مقابر مصرية الصبغة في عهد الدولة الوسطى، ولا بد أن نفهم أن هؤلاء المصريين النازحين كان معهم خدمهم. أما في الجهات الراقية في بلاد النوبة، وكذلك في القرى فكان النوبي يعيش عيشة خاصة كما تدل على ذلك الْجَبَّانَاتُ القومية ومستعمرات هذا العهد. أما إذا كانت قد حدثت حقيقة هجرة كبيرة من مصر إلى بلاد النوبة السفلى فإن ذلك كان هو السبب في القضاء على ثقافة النوبيين مما جعلهم يهاجرون إلى أماكن بعيدة، غير أن ذلك ليس هو الواقع بأية حال من الأحوال، وذلك لأن ثقافة مجموعة C كانت مزدهرة وليس هناك ما يدل على أي انحطاط ثقافي قَطُّ هناك.

والواقع أن ثقافة مجموعة C لم تتأثر بالثقافة المصرية العالية إلا تأثرًا سطحيًّا إذ قد بقيت الصبغة الأساسية الثقافية القومية لم تتغير، ففي الأواني الجنازية بقيت العناصر التي كانت على وجه عام قد نُقِلَتْ في بداية الاختلاط بالثقافة المصرية، هذا إلى آلات أخرى وأشياء فنية قد بقيت كما هي بصورة ما، ويمكن أن تكون مستوردة من مصر أو وطنية الأصل، ومن الجائز أنه منذ عهد الدولة الوسطى قد وجدت أشياء كمالية في القبور بكثرة بعض الشيء، إذ قد وُجِدَتْ مرايا من النحاس في مجموعة ثقافة C، وكذلك قبلها وبعدها، ولكن الخناجر المصرية البحتة المصنوعة من البرنز قد وُجِدَتْ في المقابر النوبية ببلدة «عنيبة» أولًا في بداية الدولة الوسطى.[٢٨] ومعظم الخناجر يرجع عهدها إلى العصر المتوسط الثاني، وتوجد كذلك أسلحة في مقابر مجموعة C ولكنها نادرة.[٢٩] وقد عُثِرَ في قبر من مقابر «عنيبة» على قطعة عاج مشغولة وتدل على أنها صناعة مصرية بحتة، غير أن تقليد لوحات المقابر المصرية وكذلك موائد القربان[٣٠] قد أُخِذَ عن مصر، كما حدث ذلك في عناصر أخرى في ثقافة مجموعة C على وجه عام في عصر متأخر.

والواقع أن ثقافة مجموعة C قد اختطت لنفسها حياة خاصة وكذلك العناصر التي ثقافتها من «كرمة» فإنها تابعة بوجه خاص لعهد كانت فيه الموانع الخاصة بالحدود عند «الشلال الثاني» قد أزيلت بين البلدين.

ثقافة (كرمة)

تحدثنا فيما سبق عن مدى اختلاط المصريين ببلاد النوبة وما كان لمصر من سلطان في بلاد النوبة السفلى حتى «الشلال الثاني» وما بعده بقليل، وكذلك تحدثنا عن ثقافة مجموعة C وما كان لها من أثر في هذه الجهات منذ أن ابتدأت تظهر في نهاية الأسرة السادسة، وقد بَقِيَتْ مستمرة حتى بداية الدولة الحديثة كما سنرى بعد، على أنه في الوقت الذي كانت تسود فيه ثقافة مجموعة C بلاد النوبة السفلى كانت تزدهر في بلاد النوبة العليا ثقافة أخرى وذلك أن الأستاذ «ريزنر» قد عثر في بلدة «كرمة» الواقعة شمالِي «جزيرة أرقو» مباشرة وعلى مسافة بعيدة من حصن «سمنة» الذي كان يعد الحد السياسي لمصر في عهد الدولة الوسطى على جبانة وطنية عظيمة وعلى آثار مستودع تجاري.[٣١] وقد وصف السياح والكتاب المحدثون بلدة «كرمة» ولكن أشملهم وأوفاهم وصفًا هو ما كتبه الأثري «لبسيوس»[٣٢] وقد زار بعث «لبسيوس» «كرمة» في يونيو/حزيران سنة ١٨٤٤.

والمكان المعروف باسم «كرمة» أخذ اسمه من الإقليم الذي يقع على الشاطئ الشرقي للنيل بين «أرقو» و«تومبوس» ويسكنه الآن نوبيو «دنقلة» أو البرابرة. والميزة الظاهرة لهذه البقعة خرابتان مؤلَّفتان من المباني المقامة من الطوب التي تُدْعَى بلغة أهل «دنقلة» «كرمان دفوفة»، وكلمة «دفوفة» يحتمل أن تعني قرية وخرائب «كرمان دفوفة» يمكن رؤيتها من بعد، وقد لاحظها كل السياح الذين مروا بهذه الجهات. وتنقسم «كرمان دفوفة» في نظر الأهالي قسمين «دفوفة العليا» و«دفوفة السفلى» وتشمل «كرمة» حاليًّا عدة مجاميع من البيوت المقامة من الطين بالقرب من النهر.

وأهل ثقافة «كرمة» الذين وُجِدُوا في الجبانات العظيمة التي عُثِرَ عليها في هذه البقعة في المقابر التي يرجع تاريخها إلى نهاية الأسرة الثانية عشرة وبداية الدولة الحديثة يُنْسَبُونَ إلى السكان الأصليين على حسب رأي الأستاذ «ريزنر»[٣٣] حيث يقول: «وإذا وزنَّا الأمور بميزان الإمكانيات التي ترتكز على البراهين التي في متناولنا فإني أستنبط أنه عندما أُسِّسَتْ مستعمرة «إنبو أمنمحات (جدار أمنمحات)» التجارية كانت مديرية «دنقلة» مسكونة بسلالة أصلية لا تُنْسَبُ إلى زنوج أواسط أفريقيا بل إلى مجموعة سكان شمالِي أفريقيا، ويحتمل أن اللوبيين كانوا فرعًا منهم. وهذا الجنس كما يُشَاهَدُ في الصور المصرية الخاصة باللوبيين يَتَّسِمُ بأنف مفرطح ويميز بتقاطيع بارزة تعادل الميزات الزنجية الخاصة بالهياكل العظمية النوبية. ويُلَاحَظُ في المقابر النوبية المتأخرة العهد أن السكان أصبحوا مختلطي الجنس، وقد أظهر الفحص الذي قام به الدكتور «دري» أنه توجد في مقابر هذا العصر المتأخر هياكل بشرية من أجناس مختلفة بعضها مصري صميم وبعضها يدل على أنه من أهل مجموعة ثقافة C ويظهر فيه الدم الزنجي، وأخيرًا نجد أن بعض الأجسام من أصل زنجي صريح.

وعلى ذلك ينبغي للإنسان أن ينظر إلى سكان «كرمة» في نهاية الدولة الوسطى وبداية الدولة الحديثة، كما ينظر على وجه التقريب إلى سكان بلدة «أم درمان» الحالية حيث يجد فيها الإنسان الآن كل الأجناس التي تسكن أعالي وادي النيل.

ومما يُؤْسَفُ له جد الأسف أن ثقافة «كرمة» ليس لها وثائق مكتوبة قط، وما عثر عليه من نقوش هيروغليفية ليس له أية علاقة بهذه الثقافة.

ولا نعلم من الآثار التي عُثِرَ عليها قبل الكشف الذي قام به الأستاذ «ريزنر» في مصر وبلاد النوبة السفلى؛ أي عن نشاط للمصريين في هذه الجهة إلا في لوحة عثر عليها في بلدة «إدفو»،[٣٤] من نص صعب الفهم، ويمكن أن نستخلص منه أن رجلًا يُدعى «خع

عنخف» يقرر أنه كان مصريًّا، ويحتمل أنه كان صاحب نشاط في «كرمة»، ولكن يمكن أن نفهم من المتن جليًّا أنه كان هو وزوجه وأولاده قد عادوا إلى «أسوان» من «كرمة» أو أنهم وصلوا إلى هذا المكان في ثلاثة عشر يومًا. ويذكر لنا فضلًا عن ذلك صاحب هذه اللوحة الذهب الذي أحضره، وكذلك يقول إنه جلب معه عبدًا أو عبيدًا، وسنتحدث عن هذه اللوحة فيما بعد. ولعمري إن أهم ما كانت تتجه إليه أنظار المصري في كل عصور تاريخه حتى عصرنا الحالي إلى زمن قريب هو الحصول على الذهب والعبيد، والكل يعلم أن تجارة الرقيق كانت منتشرة إلى زمن قريب جدًّا أُبْطِلَتْ بعده.

غير أن ما جاء في هذه اللوحة لا يؤكد لنا بصورة قاطعة نشاط مصر في الجنوب. وعلى ذلك فإن كل اعتمادنا على صلة مصر بهذه الجهة ينحصر فيما عُثِرَ عليه في «كرمة». والواقع أن معلوماتنا عن ثقافة «كرمة» في تلك الفترة مستقاة من مقابر جبانات شاسعة الأرجاء تبعُد حوالي أربعة كيلو مترات ونصف كيلو متر من شاطئ النيل.

ففي هذه البقعة يوجد غير مزارين كبيرين عدة مقابر ومدافن في هيئة أكوام دُفِنَ فيها أفراد من عامة الشعب، وعدد مهم من المقابر الضخمة يدل ظاهرها على أنها كانت لأسر أمراء أقام كل منهم لنفسه جبانة منفردة. وهذه المقابر في صورة تل مستدير الشكل يحيط بها لوحات من الحجر الرملي ويوجد في داخلها مبنى مؤلَّف من جدران من اللبنات، مثال ذلك المؤسسة التي على هيئة تل رقم (٣)[٣٥] وهي المقبرة التي دفن فيها على ما يقال «زفاي حعبي»[٣٦] (انظر اللوحة رقم ٢) ويبلغ قطرها حوالي ٩٠ مترًا وتشغل مساحة قدرها ٦٣٨٥ مترًا مربعًا، ويبلغ ارتفاع الجدران المبنية باللبنات من الداخل حوالي ٢,١١ مترًا، وهذه الجدران كانت أعلى من ذلك فيما مضى، وقد أقيم في وسط هذا المدفن دهليز يمتد من الشرق إلى الغرب جدرانُه من اللبنات ويبلغ عرضه حوالي مترين، ومن هذا الدهليز يتفرع شمالًا وجنوبًا حتى محيط دائرة هذه الجبانة عدة جدران متوازية تقطعها جدران أخرى في نقط متعددة مرتبط بعضها ببعض ومن ذلك يتكون في كل من الجزء الشمالِي والجزء الجنوبي عدة حجرات صغيرة تعرَّف عليها الأستاذ «ريزنر» بأنها مقابر.

وفي وسط هذا الدهليز نجد بابًا لحجرة أمامية تبلغ مساحتها ٢,٣٥ × ٢ مترًا مسقفة بسقف مقبب وهي أكبر حجرة في كل هذه المؤسسة وقد وُجِدَتْ منهوبة فلا يمكننا أن نتحدث عن حالتها الأصلية على وجه التأكيد، ولكن يمكن وصفها بطريق الحدس بالموازنة بينها وبين ما وُجِدَ في حجرات الدفن الأخرى المماثلة لها في المؤسسات

الأخرى المجاورة. ولا نزاع في أن الشخص الذي دُفِنَ في هذه الحجرة أمير وهو الرئيس المسيطر على هذه الجهة في عصره، وبجانب هذا الأمير كانت تضطجع زوجه على سرير من الخشب، وعلى رقعة الحجرة وُجِدَ رجال مضطجعون ونساء مضطجعات، ويُحْتَمَلُ أنهم أقرب الناس إلى صاحب المقبرة وزوجه. والظاهر أنهم قد دفنوا أنفسهم أحياء طوعًا أو كرهًا مع الأمير وزوجه، ويبلغ عدد الذين دَفَنُوا أنفسهم بهذه الكيفية حوالي مئة شخص (هذا ونجد مدفونًا في دهليز المقبرة المستديرة رقم ٤ عددًا يتراوح بين ١١٠–١٣٠ شخصًا) وكل هذه الأجسام قد وُجِدَتْ في أوضاع مفزعة مخيفة مما يدل على أن هؤلاء الرجال والنساء قد لَاقَوْا حتفهم في وقت واحد. وهؤلاء الموتى ضحايا قرابتهم للمُتَوَفَّى. وقد سَمَّى هذه العادة الأستاذُ «ريزنر» دفن «ساتي». حيث يقول:[٣٧] «إنه على حسب كل ما وصل إلينا من معلومات لا توجد إلا عادة واحدة على حسبها تذهب كل الأسرة أو جزء منها إلى عالم الآخرة مع رئيسهم، وهذه هي العادة المسماة «ساتي» التي تُسْتَعْمَلُ كثيرًا، ولكنها معروفة معرفة جديدة عند الهنود باسم «ساتي» أو «سوتي» وبمقتضاها تُلقي نساء الرجل الْمُتَوَفَّى أنفسَهن (أو يُلْقَيْنَ) في النار التي يُحْرَقُ فيها الْمُتَوَفَّى، ومثل هذه العادة تفسِّر لنا تمامًا ما نجده من حقائق في مقابر «كرمة» إلخ»، والواقع أن هذا النوع من الدفن يقابل ما كان متبعًا في عصور ما قبل التاريخ عند دفن الملوك أو الأفراد من الأسرة المالكية في «سومر» ببلدة «أور»، وكذلك في أفريقيا نجد هذه العادة، وذلك أنه عند موت رئيس كانت زوجه أو بعض أقاربه يُدْفَنُونَ معه طوعًا أو على كره منهم، فكانوا بذلك يُضَحُّونَ بأنفسهم من أجله أو يُدْفَنُونَ معه أحياء. وهذه العادة متبعة حتى الآن، ولا يوجد من يحيد عنها[٣٨] إلا النادر، والظاهر أن أصل هذا المدفن الكومي الشكل هو أن يقام أولًا السور المصنوع من الحجر ثم يُبْنَى بعد ذلك البناء المصنوع من اللبنات وكان يضطجع في حجرة دفن الأمير أقرباؤه الأدنون، وكانوا في هذه الحالة يُدفنون أحياء، وفي خارج هذه الحجرة كان يُدْفَنُ الخدم والأتباع في الدهليز الطويل الممتد بقطر المؤسسة ثم يُهال عليهم التراب حيث كانوا ينامون في أوضاع محزنة مفزعة، أما الماشية التي كانت تُقَدَّمُ قربانًا في خلال حفل الدفن، وبخاصة الثيران، فكانت تُدفن في الجهة الجنوبية من المقبرة، وبعد ذلك كانت تُمْلَأُ الطرق المجاورة بالرمال والحصى بما يبلغ سمكه حوالي خمسين سنتيمترًا ثم يُغَطَّى ذلك بطبقة من اللبنات التي تعلوها طبقة من الملاط وفوق ذلك توضع طبقة رفيعة من الحصى، وكان يُقام فوق هذا المدفن الذي على شكل كومة لوحة مخروطية الشكل توضع في وسطه وهي مصنوعة من حجر الكوارتسيت، ومن المحتمَل أنه كان يوضع فوقها القربان.

وبعد ذلك يُقام في صلب هذه الكومة في خلال عدة أجيال مقابر ثانوية كانت تُحْفَرُ في الحصى حتى طبقة الطين أو أعمق من ذلك. وكان يُوْضَعُ صاحب القبر غالبًا مع زوجه على سرير ويلف كل منهما في جلد حيوان، وهنا كذلك نجد فردًا أو عدة أفراد مدفونين على الأرض مباشرة، ومن المحتمل أنهم أقارب صاحب المقبرة أو خدمه، وهؤلاء كانوا بمثابة قربان له كالخرفان التي كانت تُدْفَنُ معه قربانًا.

هذا وتُقَدِّمُ لنا الأشياء التي كانت توضع مع المتوفى في قبره لاستعماله اليومي في عالم الآخرة في «كرمة» لمحة عن ثقافة بلاد النوبة العليا في العهد النوبي المتوسط، والواقع أن هذه الثقافة تُنْسَبُ إلى العهد النيوليتي المتأخر مثل ثقافة مجموعة C؛ ففي حين نجد أن جزءًا من محتويات القبر قد صُنِعَ في نفس بلاد النوبة العليا بدون شك، فإنه قد عُثِرَ على قطع أخرى من أثاث القبر قد تأثرت كثيرًا في صنعها بالطابع المصري حتى إنه كان في كثير من الأحيان يصعب على الإنسان أن يميز بين الأشياء المورَّدة من مصر والأشياء المصنوعة محليًّا، ومن المحتمل أنها كانت من صنع مصريين هاجروا إلى بلاد السودان واستوطنوها، ويميل غالبًا إلى هذا الرأي الأخير الأستاذ «ريزنر».

ومعظم الأشياء التي وُجِدَتْ في هذه القبور مصنوعة من الفخار وبخاصة الأباريق والطسوت وأطباق الأكل والشرب والزيوت والمسوح وهي مصنوعة في مصانع فخار يدوي؛ ويقول «ريزنر» إن أشكال الأواني التي وُجِدَتْ في «كرمة» تؤلف مجموعة منقطعة النظير في كل من مصر وبلاد النوبة فنجد حوالي ١٥,٥٪ من الأواني التي ذكرت من أصل مصري في حين نجد أن ٨,٥٪ قد صنع من الفخار الخشن المصنوع باليد، وهو من مادة نوبية لا شك فيها ويشبه كثيرًا أشكال فخار مجموعة ثقافة C في بلاد النوبة السفلى، أما الستة والسبعون في المئة الباقية فهي أوانٍ جميلة الصنع عدا بعض كئوس بسيطة لا يمكن وجودها في كل من مصر وبلاد النوبة. وهذه الأواني الجميلة الصنع هي خليط نوبي بها أجزاء سوداء ولكنها صُنِعَتْ بعجلة الفخار بمهارة وبحسن اختيار للشكل لا مثيل له في الفخار النوبي بقدر ما وصلت إليه معلوماتنا. ويقول «ستيندورف» إن «ريزنر» مَيَّزَ ثمانية عشر نوعًا مختلفًا من الأواني الفخارية قسمها ثلاثة أقسام:

(١) أوانٍ وطنية.
(٢) أوانٍ مصرية أو متحضرة.
(٣) أوانٍ وطنية خشنة الصنع.

فالمجموعة الأولى تحتوى على٧٩,٥٪ من مجموع الأواني التي عُثِرَ عليها في هذه الجهة. ويظن «ريزنر» أنها عُمِلَتْ على حسب الصناعة المصرية على عجلة صانع الفخار، ومن الْمُحْتَمَلِ أن ذلك كان على نسق فخار مجلوب من مصر حيث نجد من الفخار القديم الفخار الأحمر المصقول والأواني ذات الحافة السوداء. وكذلك نجد أن أشكال وخواص هذه الأواني التي توحي بأنها كانت مخصصة للشرب على جانب عظيم من الجمال، ومن هذه بوجه خاص الأواني والأقداح الرشيقة المنظر. ويتبع هذه الأواني الأكواب الرشيقة الشكل والأباريق ذات الحافة الجميلة والأقداح ذات البزابيز والأباريق التي تشبه أباريق الشاي. كل هذه قد وجدت في مصانع «كرمة»، ولكن أصولها منقولة من مصر إلى بلاد النوبة السفلى، وقد عثر عليها في مقابر هذه الجهات التي أقيمت على شكل قعب (مستديرة)، ومن الفخار الخاص بعهد «كرمة» القعب الطويل الأسود والطويل ذو الجدار العمودي المسنن ولدينا مثال من ذلك.[٣٩]

والمجموعة الثانية تحتوى على ١١,٥٪ من مجموع فخار «كرمة» وهي من حيث الشكل والمادة والصناعة موحدة مع أوانٍ مصرية معروفة أو على الأقل قريبة الاتصال بها وهي كما قلنا من قبل إما مجلوبة من مصر أو عُمِلَتْ تقليدًا لأوانٍ مصرية.

أما المجموعة الثالثة فتحتوي على ٨,٥٪ من مجموع فخار «كرمة» وكلها صناعة محلية وتشتمل مثل أواني مجموعة ثقافة C، على أوانٍ فخارية ساذجة الصنع،[٤٠] وهذه الأواني رخيصة وفقيرة في صنعها، وكانت تستعمل في وادي النيل النوبي للأعمال اليومية المعتادة في المنازل ومن الجائز أن النساء كُنَّ يصنعنها بأيديهنَّ.

ولدينا كذلك من الصناعات الوطنية النوبية[٤١] بوجه خاص الأثاث المصنوع من النجارة الدقيقة كالأسرة والكراسي والمخدات والتوابيت، وقد صُنِعَ كثير من هذه الأشياء وفق نماذج مصرية، يضاف إلى ذلك الأشياء المصنوعة من الجلد منها الأحزمة والمبدعات الجميلة للسيدات العذارى، والأحذية، وأغطية وأربطة للأسرة والكراسي والشبابيك وعلاقات للأواني الفخارية.

أما المصنوعات المعدنية فنجد أن الصائغ كان يصوغ أدوات الزينة الجميلة التي وُجِدَ منها الكثير ونخص بالذكر الأساور والأقراط وقطع الحلي الأخرى والنحاس الذي كانت مادته في نفس البلاد، فكان يصنع منه أنواع الآلات مثل السكاكين والموسيات. ولا نعلم تمام العلم إذا كانت الخناجر العدة وهي السلاح الوحيد الذي وُجِدَ في كل المقابر النوبية في هذه الجهة من المحاصيل المحلية أو جلبت من مصر كما يظن ذلك «ستيندورف».[٤٢]

وتمتاز مصنوعات «كرمة» بما تنتجه من الزخارف المصنوعة من الميكا. وهذه المادة قد وُجِدَتْ في مصر منذ عصر ما قبل التاريخ.[٤٣] وقد وُجِدَتْ مرايا من الميكا من العهد العتيق في بلاد النوبة.[٤٤]

وأهم ما يلفت النظر في استعمال هذه المادة في «كرمة» هو استعمالها زينة في صنع القبعات[٤٥] المصنوعة من الجلد التي خِيطَ فيها قطع من هذه المادة[٤٦] ذات أشكال مختلفة تُمَثِّلُ الزراف والطيور والأزهار الصغيرة وأشكالًا هندسية أخرى منوعة، ونجد مثل هذه الأشكال مصنوعة من سِنِّ الفيل في صور حيوانات مثل الثعلب والنعام والصقور[٤٧] مطعمة في خشب الْأَسِرَّةِ. ولا نزاع في أن جزءًا عظيمًا من الخرز والتعاويذ التي وُجِدَتْ في هذه الجهة هي من شغل «كرمة»، وكذلك لا بد أن نعلم أن الكثير منها قد أحضره معه صناع من مصر إلى بلاد النوبة.

ومن الأشياء التي جُلِبَتْ من مصر على ما يظهر الأواني المصنوعة من الفخار المطلي؛ وقد وُجِدَ منها قطع عديدة[٤٨] ويرى الأستاذ «ينكر»[٤٩] أن صناعًا مصريين كانوا يديرون المصانع التي تَصنع الأواني الخزفية المطلية التي توجد على مقربة من «دفوفة كرمة». غير أن «ستيندورف» لا يعتقد في ذلك ويظن أن هذه الأشياء قد أُحْضِرَتْ من مصر، وكذلك التماثيل التي عُثِرَ عليها في «كرمة» فإنها أُحْضِرَتْ من مصر ويظن «ينكر» أنها قد صُنِعَتْ في «كرمة» وقام بعملها صناع مصريون.

هذا ولدينا فضلًا عن ذلك جزء من القواعد المصنوعة من الخزف المطلي، والتطعيم والخرز والتعاويذ والأشكال المطلية وغير ذلك قد صُنِعَتْ في مصانع نوبية وطنية. وقد بقي من كل ذلك آثار تدل على وجود مصنع في هذه الجهة.[٥٠]

هذا ويدل ما وجد في المقابر من الأشياء الكمالية التي عُمِلَتْ في أشكال مصرية كالمرايا والآلات المصنوعة من النحاس وحِقَاقِ الزيت المصنوعة من المرمر وغير ذلك على أنها من أصل مصري وأن الصناع المصريين قد أَتَوْا إلى بلاد النوبة العليا وزاولوا صناعاتهم فيها.

وإذا ألقينا نظرة عامة إلى مجموع ما عرفناه عن ثقافة «كرمة» حتى الآن أمكننا أن نقرر بحق أن الثقافة قد تأثرت تأثرًا عظيمًا بالثقافة الأفريقية أكثر من الأثر الذي نجده في أختها ثقافة مجموعة C التي ظهرت في بلاد النوبة السفلى. حقًّا إن كلًّا من حملة هاتين الثقافتين بينهما رابطة جنسية تربطهما بعضهما ببعض، هذا فضلًا عن أن كلًّا من الفريقين كان يفلح الأرض ويرعى الماشية، كما نجد كذلك تشابهًا بينهما من حيث

الملبس وبخاصة الأحزمة المزينة بالخرز، وكذلك من جهة المحاصيل اليدوية فهي مشاعة بينهما، ومن جهة أخرى نجد فروقًا ضخمة وبخاصة في مؤسسات المقابر التي تتشابه جميعًا في الظاهر، إذ نجدها كلها على هيئة كومة مستديرة، وكذلك تختلف في عادة الدفن إذ نجد العادة في «كرمة» أن يُدْفَنَ مع الرئيس عدد عظيم من الناس المذبوحين ومعهم أدوات زينة خاصة، ولكن في ثقافة مجموعة C كان صاحب المقبرة يُدْفَنُ وحده.

ويلاحظ أنه لم توجد قطع فنية كالتماثيل وغيرها من الصناعة النوبية الوطنية بل كادت تكون معدومة في «كرمة»، هذا إذا غَضَضْنَا الطرف عن بعض التماثيل الصغيرة المصنوعة من الحجر المطلي في«كرمة»[٥١] مثل الأسود والثعابين والكباش والصقور.

أما في مجموعة ثقافة C فلدينا جَمٌّ غفير من التماثيل الصغيرة للرجال والحيوان.[٥٢]

أما الصور التي في المناظر فنجد في «كرمة» (خلافًا لبعض الرسوم التي نجدها على الجص في مزارين[٥٣] وهي التي نلحظ فيها على ما يظهر التأثير المصري) أحيانًا صورًا فخمة مطعمة بسن الفيل والميكا والخشب والجلد، ولدينا في مجموعة C صور أخرى مختلفة عن السابقة من حيث الأسلوب اختلافًا تامًّا رسمت على أوانٍ من الفخار، صورًا محفورة لرجال وحيوانات وهي تذكرنا بالصور التي كانت تُرْسَمُ على جدران الأواني المصرية في عصر ما قبل التاريخ أو الصور التي رُسِمَتْ على جدران «هيراكنپوليس» (الكاب). يُضاف إلى ذلك بعض الاختلافات في الملبس إذ نجد في «كرمة» القوم يلبسون القبعة المصنوعة من الجلد والمزينة بقطع من الميكا عليها صور مختلفة. هذا ولا نجد في «كرمة» ما نجده من خواص عصر ثقافة C المتأخر، وأعنى بذلك الأقراط وأسورة السواعد المصنوعة من أصداف البحر،[٥٤] وكذلك نجد هذه الاختلافات في كثير من المحاصيل الهامة من الصناعات اليدوية.

ومما سبق نجد أن لدينا ثقافتين منفصلة إحداهما عن الأخرى انفصالًا بَيِّنًا، ففي بلاد النوبة السفلى لدينا ثقافة مجموعة C وفي بلاد النوبة العليا لدينا ثقافة «كرمة». وكلاهما يُنْسَبُ إلى عصر النحاس المتأخر، وهما متفرعتان من الثقافة الإفريقية. وقد انفصل بعضهما عن بعض في العصور الأولى ونمت كل منهما على حدة، وبقيت كل منهما فيما بعدُ لا تؤثر على الأخرى كما يقول «ستيندورف»، ولكن الأستاذ «ينكر» يقول إن ثقافة مجموعة C قد تأثرت تأثرًا عظيمًا بثقافة «كرمة»[٥٥] وقد ظهر ذلك جليًّا في المزارات المبنية باللبنات في مقابر مجموعة ثقافة C فإنها مأخوذة عن ثقافة «كرمة».

وخلاصة القول أن مجموعة الأشياء التي أنتجتها حفائر «كرمة» تؤلف مجموعة أثرية لها علاقة ظاهرة جلية من جهة بمجموعة الدولة الوسطى المصرية، ومن جهة

أخرى لها علاقة أقل ارتباطًا بمجموعة بلاد النوبة الأثرية التي من نفس العهد، غير أن مجموعة ثقافة «كرمة» في حدِّ ذاتها تعد نسيج وحدها فالصبغة الخاصة بالمحاصيل الفنية والصناعية التي وُجِدَتْ في المقابر تُفَسِّرُ بطبيعة الحال وبكل بساطة صيغة الموقع الجغرافي الذي يسكن فيه القوم. والواقع أن هذا المكان كان يُعَدُّ مستعمرة تجارية مسلحة أسسها فرعون مصر لتحافظ على سلامة الطرق الجنوبية، وكانت في الأصل تحتوى على أهل بيت أول نائب ملك وموظفيه ويُحْتَمَلُ أنه كان الأمير «زفاي حعبي» حاكم «أسيوط».[٥٦] وجماعة حاشية بيت «زفاي حعبي» هذا كانت تتألف من طائفة من الموظفين قائمين بأنفسهم ويشملون عمالًا وصناعًا كافين لسدِّ الحاجات الضرورية اللازمة لمثل هذا المجتمع كما كانت الحال في حاشية بيت صاحب الإقطاع العظيم في مصر في تلك الفترة. والواقع أن الصناع المصريين الذين كانوا قد جُلِبُوا إلى تلك الجهة كان المفروض فيهم أنهم عمال مدربون مهرة وأنهم قد أُبْعِدُوا عن المواد الأولية التي كانوا يُنْتِجُونَ صناعاتهم منها؛ ولذلك كانوا يبحثون بكل ما لديهم من عزم عن المواد التي كانت لازمة لصناعاتهم في موطنهم الجديد، ولا بد أنهم قد بحثوا عن المواد والطرق ومنتجات العمال المحليين تمهيدًا للبدء في عملهم. ولا نزاع في أن الصناعات المحلية كانت بطبيعة الحال بدائية جدًّا بالنسبة لما كان يوجد في مصر، ولكن لا بد أن الفخار ذا القمة السوداء والفخار الأحمر المصقول وهما اللذان يُؤَلِّفَانِ أهمَّ صفة للمجموعة الفخارية الأثرية النوبية، قد احتل مكانه في الذوق المصري، ويظهر أنه قد ترك أثرًا في أعمال المصريين هناك أكثر من أي عنصر آخر من عناصر الصناعات المحلية المجاورة. والواقع أن الصناع المصريين الذين استوطنوا هذه الجهة قد أخذوا هذه الصناعة المحلية واستعملوا في صنعها عجلة صنع الفخار، هذا بالإضافة إلى المهارة المصرية، ومن ذلك أوجدوا مجموعة من الفخار لا مثيل لها في العهود القديمة قبل استعمال الإغريق العجينة اللطيفة في صناعة الفخار. وكذلك قد أخذ المصريون عن أهل هذه الجهات حرفة أخرى أو حرفتين وأعنى بذلك صناعة الجلود والتطعيم بحجر الميكا، غير أن هاتين الصناعتين لم تتقدما تقدمًا يُذْكَرُ إذا استثنينا تطبيق الأشكال المصرية في الحليات التي عُمِلَتْ من الميكا. وعلى الرغم من أن الصناعات المصرية كانت متمسكة بكل قوة بالتقاليد المصرية فإنها قد تأثرت بالمواد الجديدة التي كان يستعملها العمال المصريون. هذا بالإضافة إلى الالتزامات الجديدة التي كانت تتطلبها البيئة الجديدة، وهذه الالتزامات الجديدة كانت ترجع أولًا: إلى إدخال عادات دفن جديدة مثل وضع الْمُتَوَفَّى على سرير، وثانيًا:

أحوال الجو الجديدة كعمل صهاريج ماء وأوانٍ للشرب وأحذية، وثالثا: حاجيات التجارة الجنوبية، وبخاصة الخرز المطلي وغيره مما كان يحتاج إليه أهل هذه الجهة.

المستودع التجاري الذي أُقِيمَ في «كرمة»

تحدثنا فيما سبق عن جبانات «كرمة» وعن الأشياء التي عُثِرَ عليها في مقابرها مما وضع أمامنا صورة عن الثقافة التي كانت سائدة في هذا العهد.

والآن نتحدث عن المستودع التجاري الذي وُجِدَ في هذه الجهة ويقع على مسافة كيلو مترين من شاطئ النيل وعلى مسيرة خمسة كيلو مترات من «جزيرة أرقو» ويتألف من مبنى في صورة مستطيل مقام باللبنات وقد أقيم في الجهة الشرقية مبنى آخر بُنِيَ بنفس الطريقة ويُعَدُّ في الواقع امتدادًا للمبنى السابق في حين أنه يوجد في الجهة الغربية من هذا المبنى مجموعة مبانٍ مركبة أقيمت أمام الجهة التي فيها المدخل العام.

وتدل شواهد الأحوال على أن المبنى الأصلي قد بُنِيَ على حسب مقاييس الأبعاد المصرية فطوله يبلغ ٥٢,٥ مترًا وهو ما يساوي مئة ذراع مصري وعرضه ٢٦,٧ مترًا وهو ما يساوي خمسين ذراعًا مصريًّا، يضاف إلى ذلك أن صناعات اللبنات التي بُنِيَ بها تختلف عن اللبنات المصرية العادية. ويلحظ في هذه المباني أنه قد استعملت كتل من الخشب في صلب المباني لتقويتها، هذا إلى أن مقاس اللبنات وتنظيمها في الجدران يتفق مع ما هو معروف في المباني المصرية في هذا العهد.

وكان ارتفاع هذا المبنى ١٩,٣ مترًا عند الكشف عنه. والدور العلوي الذي كان مخصصًا للسكن والمؤن قد هُدِمَ، وكذلك المبنى الإضافي الذي في الجهة الشرقية فقد كان ارتفاعه مثل ارتفاع المبنى الأصلي، ولم يبقَ منه إلا الجزء السفلي (انظر الشكل رقم ١).

ويدل ما عثر عليه في هذا المبنى من مواد غفل وأوانٍ مثل السلات والأوعية المصنوعة من الفخار الكبير العدد المختومة، على أن هذه المؤسسة كانت مركزًا تجاريًّا هامًّا وقد يكون خلو المبنى الرئيسي من طوابع أختام كالتي وُجِدَتْ في الحجرتين الثالثة والرابعة من المبنى الغربي جاء من طريق الصدفة، ومع ذلك فإن الدكتور «ريزنر» يؤكد أن الحجرتين الأولى والثانية (أ، ب) وهما اللتان يُفْتَحُ بابهما إلى خارج المبنى هما متجران لا مكانان للسكن، ومع ذلك يمكن أن نَعُدَّ الحجرة الأولى مقصورة للعبادة إذ إنها بما تحتويه من عمد في وسطها تشبه المقصورتين أو المزارين رقم ٢ ورقم ١١ اللتين عثر عليهما في هذه الجبانة الشاسعة.[٥٧]

ومن البدهي أن المبنى الرئيسي قبل زيادة أية إضافة فيه كان يُعَدُّ نوعًا من الحصون أو مستودعًا تجاريًّا محصنًا تخزن فيه السلع، وكان يسكن فيه المصريون الذين كانوا يشتغلون في التجارة مع أهالي الجنوب، وذلك لحماية أنفسهم من غارات السطو والنهب التي كانت تتعرض لها مثل هذه الأماكن الغنية بما فيها من مواد ثمينة. ويستنبط من موقع هذه المؤسسة في الوادي أنها كانت لأول وهلة تشبه حصون بلاد النوبة السفلى التي تقع في الوديان. غير أن الأخيرة كانت تقع في أسفل النهر الذي كان يسيطر المصري هناك عليه، يضاف إلى ذلك أن عدم انتظام تصميم هذه المؤسسة جعلها تُشْبِهُ حصن ميناء نهري، غير أن الأحوال في السودان تختلف اختلافًا تامًّا فقد رأينا على حسب ما جاء في لوحة الحدود التي أقامها «سنوسرت الثالث» تجارة نهرية وطنية، كما رأينا فضلًا عن ذلك أن المصري لم يكن في مقدوره قط أن يسيطر على النهر سيطرة تامة، إذ كان مضطرًّا أحيانًا أن يوجه حملات بأسطوله جنوبي «سمنة» على أعدائه المغيرين. ومن أجل ذلك لم يكن هذا المخزن مقامًا أسفل النهر، ولذلك كان وضعه في الأرض المكشوفة رهنا بالوضع الذي يكون فيه بيوت السكان؛ ومن ثَمَّ كان لا بد من انتخاب نقطة قوية يمكن حمايتها من كل جانب. وهذه الحصون تشبه في الواقع الحصون الجبلية التي كانت تُقَامُ عند «الشلال الثاني»، فكان يُقَامُ طوار ضخم تحت الحصن وبذلك كان ينال هذا الحصن نفس الميزة التي يتمتع بها الحصن الجبلي. والواقع أن المبني الأساسي في «كرمة» كان يشبه حصنًا جبليًّا مقامًا على جبل صناعي. وكان في مقدور مثل هذا البناء الضخم أن يقاوم أكثر من السور الذي يُقَامُ حول الميناء النهرية في بلاد النوبة السفلى.

ويقول الأستاذ «ينكر»[٥٨] إنه استنادًا إلى براهين مقنعة نفهم أن هذه المؤسسة لا يمكن أن تكون حصنًا مصريًّا يستطيع به المصريون أن يسيطروا على الأراضي التي حوله ويبتزون المحاصيل التي يحتاجون إليها بمثابة جزية، وذلك لأن حجم هذا المبنى الصغير نسبيًّا، إذا فرضنا أنه حصن، لا يتسع لأكثر من خمسين إلى مئة رجل، يضاف إلى ذلك أن انفرادها تمامًا يؤكد عدم صلاحيتها لأن تكون حصنًا. حقًّا نعرف أنه في القرن التاسع عشر بعد الميلاد كانت توجد حاميات عربية صغيرة في داخل أفريقيا يمكن بوضعها أن تسيطر على بقعة كبيرة من الأرض، ولكن الفضل في إمكان قيامها بمثل هذه الوظيفة يرجع إلى حسن تسليح رجالها بالأسلحة النارية الحديثة. وعلى العكس تدل الآثار المكشوفة في جبانات القوم من الوطنيين في «كرمة» على أنهم كانوا قومًا مسالمين يتبادلون التجارة بين مصر وبلاد السودان كما سنرى بعد.

وكذلك نجد في المبني الشرقي لهذه المؤسسة نفس التصميم الذي قام عليه البناء الأصلي إذ بوساطة المسطح الذي يشتمله الطابق العلوي يمكن توسيع إمكانية الدفاع عند الهجوم وذلك لأنه كان في الإمكان وضع حامية كبيرة عليه.

أما البابان الخاصان بالحجرتين (أ و ب) وهما اللذان يظهر أنهما لا علاقة لهما مباشرة بالدور العلوي فإنهما لا يُؤَثِّرَانِ بأية حال على نظام الدفاع لأن الرماية من الشرفات التي فوق الباب تهيئ للرامي مكانًا فسيحًا أكثر مما يتصور. أما مجموعة المباني المقامة في الجهة الغربية للمؤسسة وهي التي تتألف من عدة حجرات فإنها تؤدي على العكس بما فيها من زوايا ميتة إلى ضعف بين في نظام الدفاع وعلى ذلك تكون في تصميمها مضادة لتصميم البناء الأصلي، ومن ثَمَّ فإنه يلوح أن هذه المجموعة قد أنشئت في وقت كانت فيه الأحوال هادئة موطدة الأركان، والعناية بشئون الدفاع الفني لم يكن لها الاعتبار الأول عند إقامتها، يضاف إلى ذلك أن الأرض المكشوفة التي تحيط بهذه المؤسسة وما جاورها من المباني لم تكن بأية حال من الأحوال محاطة بسور حامٍ لها.

وعلى الرغم من أن التاريخ النسبي للأجزاء المختلفة لهذه المؤسسة قد عُرِفَ على وجه التقريب، وأن البناء الشرقي أقدم من الجزء الرئيسي من المجموعة التي في الغرب، فإن التاريخ المؤكد للبناء كله لم يمكن الوصول إليه بعد.

وقد وُجِدَتْ تحت المبنى الأصلي جدرانٌ أقدم منه كما وُجِدَتْ بعض أجزاء مبانٍ في مجموعة من المباني الغربية أقدم من المبنى القديم وقد نسب الأستاذ «ريزنر» هذه المباني إلى الدولة القديمة وحدَّد ذلك ببعض آثار وُجِدَتْ هناك بأنها من الأسرة السادسة. وقد وصف لنا «ريزنر» حالة الطبقات والأساس لهذا المكان فيما يأتي:

> وكما ذكرنا فيما سبق كانت توجد ثلاث طبقات من الردم: أولًا طبقة علوية من الردم الخشن مؤلفة بوجه خاص من آجر مفتت، وثانيًا طبقة من الردم الدقيق المفكك تملأ الجدران، وثالثًا بقايا ردم قديم متماسك كان تحت الأرضية يرجع إلى عهود مختلفة. ففي الردم الخشن لم تُوجَدْ آثار تقريبًا إلا بعض قطع من الفخار بعضها داخل في تركيب اللبنات. وقد وُجِدَ في الردم المفكك معظم الأشياء التي استخرجت من هذه البقعة. وهذا الردم معظمه أتربة جلبتها الرياح ولبنات متحللة من عصور مختلفة جدًّا. ففي الحجرات التي تقع شمال العقد لم توجد إلا قطع من الفخار أو من أواني الفخار المطلي بالقاشاني.[٥٩] هذا إلى أشياء أخرى ليس لها أهمية فاصلة. ووُجِدَ جنوب عقد

المبنى في الردم الذي كان في الجدران القديمة سلسلة من القطع الأثرية على جانب عظيم من الأهمية، أهمها قطع كثيرة من المرمر الخاصة بالعطور ذات الشكل الأسطواني وهي التي كانت شائعة الانتشار في الدولة القديمة، ووجد منها منقوشًا على أقل تقدير خمس وعشرون آنية مختلفة باسم الملك «بيبي الأول»؛ ولكن أسماء الملوك «رع نفركا» (بيبي الثاني) و«أمنمحات الأول» و«سنوسرت الأول» ذُكِرَ كل منهم مرة واحدة. وكذلك اسم الملك «مرنرع» ذُكِرَ على قطعة من نفس طراز الأواني التي وُجِدَتْ في المبنى رقم ٢ (KII). وهذه القطع بوجه خاص في الحجرة (H5)، ولكن وُجِدَتْ كذلك في الحجرة (X 1–3). وهذه الأشياء كانت على ما يظهر مما لدينا من أدلة قد أودعت هنا مع الردم قبل إقامة «الدفوفة». وكانت موجودة تحت سفح السُّلَّمِ الخارجي للعقد في أسفل. وكانت بلا نزاع تحت المستوى الذي تتطلبه رقعتا الحجرتين (H, X). ومن الممكن إذن أن تكون قد أُلْقِيَتْ مع أشياء أخرى في أثناء حفر جدران «الدفوفة»، فإذا كان هذا الفرض صحيحًا — وإني أعتقد بصحته — فإن امتداد زمن القطع المؤرخة يد على أن «الدفوفة» كانت قد أقيمت بعد بداية حكم «سنوسرت الأول»، ودُفِنَتْ فيما بعد في جبانة «زفاي حعبي» (KIII)، وعلى ذلك يمكن أن تكون المدة التي مكثها البناء القديم على هذا الموقع تمتد من عهد «بيبي الأول» حتى عهد «سنوسرت الأول».

ولكن مما يُؤْسَفُ له أن الأستاذ «ريزنر» لم يقدم لنا أي صورة تخطيطية عن هذه الطبقات والجدران التي تحدث لنا عنها مما جعل التاريخ النسبي للأجزاء المختلفة لهذا البناء لا يمكن ضبطه، كما ترك لنا حالة الأساس غير ظاهرة بالنسبة لقطع المرمر. وقد دل البحث على أن وجود قطع المرمر السالفة الذكر لا يمكن اتخاذها معيارًا لوجود مبانٍ قديمة من عهد الدولة القديمة.[٦٠]

وعلى ذلك فإن ما وجد من آثار في عهد الدولة القديمة في «كرمة» وما وجد من مخازن عهد الدولة الوسطى لا بد أن يبقى موضع الشك إذا كان لنا الحق في أن نُسَلِّمَ بأنه وُجِدَ في عهد الدولة القديمة مُسْتَوْدَعٌ تِجاري في «كرمة». على أنه من الممكن بدون شك أن تكون هذه الأواني قد جُلِبَتْ أولًا في عهد الدولة الوسطى إلى «كرمة»، مما يدل على أن استعمال الأواني القديمة كان مستعملًا في الجنوب كما كان مستعملًا في شمال

الوادي،[٦١] فنجد مثلًا في مخزن الأواني الذي وُجِدَ في هرم «زوسر» أواني من الحجر من عهد الأسرتين الأولى والثانية.[٦٢]

وكذلك وُجِدَتْ آنية من الحجر في مخزن من عهد الأسرة الثامنة عشرة في «تل العمارنة».[٦٣] وفضلًا عن ذلك وُجِدَ في «كريت» وكذلك في بلاد اليونان نفسها أوانٍ من الحجر مصرية الصنع، وبخاصة في المقابر الكريتية — أقدم بكثير من عهد استعمالها في هذه الجهات — ولا بد أنها على الأرجح قد أحضرت من مصر قبل زمن استعمالها.

ومن الممكن أن تكون هذه الأواني المصنوعة من المرمر التي أُتِيَ بها إلى «كرمة» قد جُلِبَتْ في زمنٍ كان استعمالُها في مصر قد انقضى ولم تكن من جهة نقوشها من حيث الاستعمال أو بوصفها أوانيَ جنازية ذات ميزة خاصة. وقد وصلت بوساطة تبادل التجارة مع أهالي الجنوب لتُسْتَعْمَلَ هناك. وقد عثر «ريزنر» على قطع مؤرخة بعهد الدولة القديمة في المزار أو المقصورة رقم ٢ الخاصة بجبانة الأهالي في «كرمة».

وعلى أية حال فإن التأريخ الأصلي لإقامة المستودع التجاري السالف الذكر غير مؤكد، غير أنها على ما يظهر ترجع إلى عهد بداية الأسرة الثانية عشرة. ولا ينبغي أن نبني السبب في ذلك على قطع المرمر التي وجدناها في «الدفوفة» باسمي الملك «أمنمحات الأول» و«سنوسرت الأول» بل يُحْتَمَلُ أن نضم إلى ذلك مائدة القربان التي وُجِدَتْ باسم الملك «سنوسرت الأول» في «جزيرة أرقو». وهذه المائدة قد وُجِدَتْ مبنية في بيت في هذه الجزيرة وهي موجودة الآن في متحف المديرية في «مروي». ويقول «ريزنر» إن هذا الأثر يُحْتَمَلُ أنه أتى من «كرمة» أو «كاوا» ولكن في الغالب من «جزيرة أرقو».[٦٤] هذا وقد وُجِدَ فضلًا عن ذلك في مقبرة «زفاي حعبي» (KIII) تمثال هذا الأمير بالحجم الطبيعي وكذلك تمثال زوجه، ويدل وجود لوحة في مقصورة «كرمة» رقم ٢ (KII) باسم «أنتف» على احتمال إقامة مؤسسة في عهد «أمنمحات الأول» أو «أمنمحات الثاني».

وتدل القطع الأثرية الأخرى الْمُؤَرَّخَةُ التي وُجِدَتْ في المستودع التجاري (مثل طوابع الأختام التي وُجِدَتْ في المبنى الشرقي من هذه المؤسسة) بوجه التأكيد على استمرار وجود هذا المستودع حتى عهد الهكسوس. فنجد فضلًا عن طوابع أختام عديدة ذات طراز خاص بهذا العصر أسماء الملوك الآتية:

(١) ابن رع «أبيبي» (= «أبو فيس»).
(٢) ابن رع «ششي».
(٣) الإله الطيب «ماعت أب رع».

(٤) الإله الطيب (؟) «سخعن رع».
(٥) الزوجة الملكية العظيمة صاحبة التاج الأبيض «إنني».

فبينما نجد أن الملكة «إنني» يرجع عهدها على الأرجح إلى الأسرة الثالثة عشرة إذ نجد أن الملوك الآخرين الذين عددنا أسماءهم هنا جميعًا يرجع تاريخهم إلى عهد الهكسوس، ولا شك في أن ذلك كان حوالي العهد الذي قوي فيه نفوذ الهكسوس في الوجه القبلي ولم تكن معارضة الأسرة السابعة عشرة وسالفتها قد بدأت بعد.[٦٥]

وتدل شواهد الأحوال على أن مؤسسة «كرمة» (المستودع) قد امتد زمنها حتى بداية الدولة الحديثة إلى أن خربها حريق، ويحتمل أن ذلك كان في عهد الاضطرابات في نهاية عهد الهكسوس في وقت لم يكن المصريون في مركز يؤهلهم للتجارة مع الجنوب.

وقد وُجِدَتْ جبَّانات ضخمة بالقرب من هذه المؤسسة وهي كما ذكرنا من قبل تقع على مسافة ثلاث كيلو مترات شرقي مستودع التجارة وتشمل عدة مقابر مستديرة على هيئة تل بعضها كبير والآخر صغير كما تحتوي على مزارين مستطيلي الشكل وهما «كرمة» رقم (١) و«كرمة» رقم (٢) (KI, KII) وحجرات هذين المزارين مُزَيَّنَةٌ بالرسوم وبالأعمدة المقامة في وسطها.

ولا نزاع في أن هذه الأكوام المستديرة الشكل هي مقابر السكان الأصليين، غير أن ما وُجِدَ فيها من كتابات لا يمكن به معرفة أسماء أصحابها. وقد برهن الأستاذ «ينكر»[٦٦] على أنها مقابر الأهالي كما اعترف بذلك «ريزنر».

وقد تحدثنا من قبلُ عن هذه المدينة ولكن يجب أن نلحظ هنا أن ما وجد فيها هو في أساسه وطني غير أنه تأثر تأثرًا عظيمًا بالثقافة المصرية. ويدل ما في هذه الجبانات الضخمة من الإنتاج الصناعي القومي وبخاصة الخناجر ذات الشكل الخاص على أن أصحابها كانوا قومًا محاربين.

وقد رتب «ريزنر» الجبانات العظيمة التي في منطقة «كرمة» ترتيبًا تاريخيًّا نسبيًّا فوضعها على حسب قِدَمِهَا بالترتيب التالي: ٣ و٤ و١٦و١٨ و١٩ و٢٠، وإذا كان هذا الترتيب صحيحًا كما يَدَّعِي فإن هناك أسبابًا تدعو للتشكك فيه، وذلك لأنه اتخذ أساسًا لاستنباطه آثارًا تحوم حول تاريخها الشكوك. وسنورد فيما يلي النقوش التي استند إليها «ريزنر» في تحديد تواريخ هذه الجبانات وما جاء عنها من اعتراضات: فاستمع لما يقول:[٦٧] «لقد عانيت صعوبات كبيرة في وضع ترتيب تاريخي لهذه الأكوام العظيمة على أسس أثرية وذلك لأن الأشياء المكتوبة كان معظمها في حالة تمزق، ووُجِدَتْ كلها في الردم

وليست في أماكنها الأصلية» ثم يستطرد فيقول إنه «لا يشك في أن هذه النقوش بسبب ما قدَّمه من براهين في الفصول الخاصة بقطع النحت وبالمباني المنفصلة والجبانات الكومية الشكل — قد وُجِدَتْ تقريبًا في الأماكن التي نوَّه عن وجودها فيها. والنقوش التي وجد فيها إشارة عن تاريخها هي كما يأتي:

(١) تمثالان بالحجم الطبعي للأمير «زفاي حعبي» وقد وُجِدَا في الجبانة رقم ٣ والتمثال الأخير يُرَجَّحُ أنه وُجِدَ في مكانه الأصلي تقريبًا وقد عُرِفَ «زفاي حعبي» من ألقابه ومن اسمَي زوجه وأمه والدعاء للإله «أنوبيس» رب «أسيوط» ونفس «زفاي حعبي» الذي يوجد قبره في «أسيوط» قد وُجِدَ اسمه في النقوش التي سجلها الأستاذ «جرفث»[٦٨] ونجد في قبره هذا الذي لم يكن قد تم اسمَا «سنوسرت الأول» على جدرانها و«زفاي حعبي» يقدم أمامها الخضوع. ولا شك في أن «زفاي حعبي» كان عائشًا في عهد «سنوسرت الأول» (١٩٨٠–١٩٣٥ق.م.) وتدل شواهد الأحوال على أن نقوش القبر الذي في «أسيوط» قد نُقِشَتْ فوق نقوش أخرى أي إنها لم تكن خاصة بالتصميم الأول لتزيين القبر بل بالتصميم الثاني وهو الذي يُحْتَمَلُ أنه قد نُفِّذَ كله أو بعضه على يد كاهن الروح للأمير «زفاي حعبي» بعد موته. وليس من السهل لدينا أن نفسر أهمية الاسم الملكي من حيث التاريخ. إذ من الجائز أن الاسم الملكي قد وُضِعَ على الجدار بوصفه المنعم العظيم على «زفاي حعبي» حتى ولو بعد موت «سنوسرت الأول». ومع ذلك فإنه على الرغم من ذلك لا يزال من الحقائق الثابتة أن «زفاي حعبي» كان من أتباع «سنوسرت الأول». وقد اعتبر هذا الملك بأنه سيده العظيم. هذا وقد يشير إلى تعيين «زفاي حعبي» نائبًا للملك في بلاد أثيوبيا (كوش) ومن الجائز أن هذا الاعتراف بالجميل قد يرجع سببه إلى خطوات أخرى نالها في مصر، وأن التعيين في السودان كان المقصود منه النفي من البلاط وأن الذي أمر بها هو «أمنمحات الثاني». فإذا فرضنا أن تعيين «زفاي حعبي» حاكمًا «لكوش» قد تم في عهد «سنوسرت الأول» فإن الفرصة المواتية كانت بعد الحملة التأديبية التي وقعت حوالي عام ١٩٦٢ق.م. وأن الغرض من إرسال حامية مستديمة مع «زفاي حعبي» في «كرمة» كان المقصود بها إخماد أي ثورة أخرى كما حدث من قبل، وإذا كان «زفاي حعبي» قد بدأ مجال حياته في «كرمة» عام ١٩٦٠ق.م. وتمتع بمدة ولاية مثل التي كان يتمتع بها نواب الملوك في الأسرة الثامنة عشرة فيحتمل أنه قد مات حوالي عامي ١٩٤٠–١٩٣٠ق.م. أما إذا كان قد عُيِّنَ في عهد «أمنمحات الثاني» فإن أقدم تاريخ لذلك يكون حوالي عام ١٩٣٥ق.م. ومن المحتمل أن يكون قد حكم في «كرمة»

حتى حوالي عام ١٩٠٠ق.م. أو إذا كانت حياته طويلة فوق العادة فيكون قد حكم حتى عام ١٨٨٠ ق.م. وهكذا يظهر لي أن السنتين ١٩٤٠ق.م. و١٨٨٠ق.م. هما الطرفان الممكنان لموت «زفاي حعبي». والظاهر أنه في زمن ما في خلال الستين سنة هذه أقيمت الجبانة الكومية الشكل في «كرمة رقم ٣» ولا بد أن المقصورة «كرمة رقم ٢» كانت قد بُنِيَتْ». هذا ما قاله «ريزنر» عن مقبرة «كرمة رقم ٣» التي يَدَّعِي أن «زفاي حعبي» قد دُفِنَ فيها، غير أن هناك اعتراضات على ذلك يظهر منها أن «زفاي حعبي» لم يُدْفَنْ في هذا القبر إذ قد وُجِدَ في هذه المقبرة غير تمثاله وتمثال زوجه تماثيل أخرى لموظفين آخرين يحملون أسماء وألقابًا عالية من بينهم واحد يُلَقَّبُ أعظم العشرة[٦٩] للوجه القبلي وآخر يُدْعَى «كن»[٧٠] ويُلَقَّبُ المشرف على حملة الأختام، ولدينا ثالث يحمل لقب حامل الخاتم الملكي والمشرف العظيم والمشرف على حملة الأختام «أميني».[٧١] ومن المحتمل أنه كان يتمتع بنفس المرتبة التي كان يتمتع بها «زفاي حعبي» الذي لم يكن يحمل في «كرمة» لقب المشرف العظيم للوجه القبلي. وليس من المرجح أن هذا الموظف قد اشترك في إقامة هذه الجبانة مع «زفاي حعبي» فإن ذلك يكون لو سلمنا بأن حاكم مقاطعة «الكاب» الذي يُدْعَى «سبكنخت» قد دُفِنَ في قبر ثانوي في جبانة «كرمة رقم ٣» لأنه وجد هناك آنية من المرمر باسمه.[٧٢] وهذه التماثيل لا تمدنا إلا بتأريخ العهد الذي عُمِلَتْ فيه. أما المدة التي بين الدفن في جبانة «كرمة رقم ٣» وفي جبانة «كرمة رقم ١٠ ب»، وبين إقامة هذه التماثيل فإنه لا يمكن معرفتها على وجه التأكيد إذ من الجائز أن أحد الأهالي قد استعمل تماثيل قديمة لا تمثله ولا تحمل نفس اسمه.

وإنه لمن الصعب أن نضع فاصلًا بين ما هو تابع للدفن الرئيسي وهو ما تُؤَرَّخُ به الجبانة، وبين ما هو تابع للدفن الثانوي الذي عُمِلَ فيما بعد، وذلك لأن محتويات الجبانة قد قُلِبَتْ رأسًا على عقب. ولكن عندما نسب «ريزنر» الجعارين التي وُجِدَتْ في الدهليز الرئيسي لهذه الجبانة (63–11)، (87–11) للدفنة الرئيسية نتج عن ذلك أن هذه الجبانة قد أصبحت تُؤَرَّخُ بعصر متأخر عن بداية الدولة المتوسطة، هذا إذا كانت نسبة هذه الجعارين لهذه الجبانة صحيحة، وذلك لأن من شكل النقوش يظهر أن الجعران (63–11) من عهد الهكسوس، وكذلك نلحظ أن الجعران الثاني (87–11) يدل شكله على أنه من عهد بعد الأسرة الثانية عشرة، وكذلك نجد أنها ممثلة في طوابع الأختام التي وُجِدَتْ في «كرمة» للمبنى رقم (١) كما وُجِدَتْ في الدفنات الثانوية في جبانة كرمة رقم (٣)، ونجدها كذلك على ظاهر جعارين مصورة بأشكال كثيرة (راجع

11-74,11-81,11-86,11-89). وكل هذه الرسوم لا يمكن أن تُنْسَبَ إلا إلى العهد الذي بعد الأسرة الثانية عشرة.

وكذلك الحال في الجبانة رقم (٤) «بكرمة» يُلْحَظُ أن الجعارين التي وُجِدَتْ مع الأجسام في الدهليز الرئيسي وبخاصة الجعران (11-53) لا تكاد تتفق مع استنباط «ريزنر» بالنسبة لتاريخها فقد وضع هذا الجعران الأخير في عهد «أمنمحات الرابع».

وعلى أية حال نرى أن «ريزنر» قد استنبط من الآثار التي عثر عليها في جبانة «كرمة رقم ٣» (التي دل ما وجد فيها على أنها من طراز يرجع إلى أزمان متأخرة) أنها من عهد أوائل الدولة الوسطى وهذا يناقض ما كشف فيها من آثار، وعلى ذلك يمكن القول إن جبانة «كرمة رقم ٣» لا يمكن أن تكون مقبرة «زفاي حعبي» وهذا يوافق رأي «سيف زودربرج».

وإذا كانت هذه الآثار والطرز التي نشاهدها في جبانة كرمة رقم ٣ لا يمكن أن تُؤَرَّخَ بعهد أوائل الأسرة الثانية عشرة فإن وجودها في هذا المكان لا بد أن يُنْسَبَ إلى ما بعد الأسرة الثانية عشرة أو على الأقل إلى نهاية هذه الأسرة. وفضلًا عن ذلك وُجِدَ في دهليز جبانة «كرمة رقم ٣» قضيب سحري مصنوع من سنِّ الفيل كُتِب عليه النقش التالي «الأم الملكية أنني». ومن المحتمل أنها كانت في الأصل في الدفنة الرئيسية. ونحن من جانبنا نعلم بوجود الأم الملكية التي تُدْعَى «إنني» على بعض الجعارين، وقد قال عنها «نيوبري» إنها من العهد المتوسط الثاني[٧٣] وهذا التأريخ يتفق مع تاريخ الجعارين التي وُجِدَتْ في الدهليز الرئيسي لمقبرة «كرمة رقم ٣».

أما الغطاء الذي عُثِرَ عليه في جبانة «كرمة رقم ٣» وهو الذي نقش عليه الاسم الحوري للملك «أمنمحات الثالث» فتدل كل الاستعمالات المتبعة على أن أصله من مبنى «كرمة[٧٤] رقم ٥». هذا فضلًا عن أن هذا الغطاء لا يمكن أن يُعَدَّ ضمن أثاث جبانة «كرمة رقم ٣».

ومن ثَمَّ نلحظ أن هناك أشياء كثيرة تُرَجِّحُ الرأي القائل إن جبانة «كرمة رقم ٣» وجبانة «كرمة رقم ٤» لا بد أن تُؤَرَّخَا بعهد غير العهد الذي اقترحه «ريزنر» ومن ذلك تكون التماثيل التي وُجِدَتْ للأمير «زفاي حعبي» وزوجه قد اسْتُعْمِلَتْ مرة ثانية في هذه الجبانة فيما بعد. والآن يتساءل الإنسان عما إذا كان «زفاي حعبي» والموظفون الآخرون الذين جاء ذكرهم في النقوش في جبانة «كرمة رقم ٣» كانوا فعلًا يقومون بأعمال إدارة في «كرمة». فعلى حسب رأي «ريزنر» نفهم أن كل التماثيل التي وُجِدَتْ

في «كرمة» مصنوعة من أحجار محلية، غير أن هذا الرأي يرتكز فقط على أن الأحجار التي اسْتُعْمِلَتْ للحفر موجودة في هذه الجهة أي إنها أحجار محلية، غير أن المكان الذي اسْتُخْرِجَتْ منه هذه الأحجار سيظل غير مؤكد لدينا إذ ليس من الثابت لدينا أن نوع الحجر الذي نحن بصدده لم يكن مُسْتَعْمَلًا في مصر وأنه لا يوجد إلا في «كرمة».

وإذا كانت التماثيل الصغيرة والكبيرة قد نُقِلَتْ إلى «كرمة» بوساطة التجارة أو غير ذلك فإن الأشخاص الذي تمثلهم لا يقدمون لنا بدهيًّا أية صورة عن طائفة الموظفين في هذه الجهة. أما التماثيل الصغيرة فإنها على العكس من التماثيل الكبيرة الحجم يمكن حملها ونقلها بسهولة.

وتشمل النقوش عدا لوحة «أنتف» التي عُثِرَ عليها في مبنى «كرمة رقم ٢» صيغة جنازية وألقابًا بعضها لا يدل على شيء، وبعضها له اتصال بعلاقات مصرية داخلية مباشرة. هذا ونجد أن لقب «الرئيس العظيم للجنوب» الذي يحمله «زفاي حعبي» لا يكاد يعادل لقب حاكم، ولكنه من المؤكد يحمل نفس المعنى الذي نجده في لقبه «المشرف على الوجه القبلي» وهو اللقب الذي نجده في نقوشه التي تركها لنا في مقبرته «بأسيوط». يضاف إلى ذلك أننا لا نجد في نقوش «أسيوط» هذه ما يدل على أن «زفاي حعبي» كان يعمل خارج بلاد مصر أي في بلاد «كوش».

(٢) ينتقل بعد ذلك «ريزنر» إلى التحدث عن لوحة «أنتف» فيقول: «وجدت لوحة الأمير الوراثي والمشرف على الخاتم «أنتف» مُهَشَّمَةً ثلاث قطع متقاربة في الردم أمام مقصورة «كرمة رقم ٢». وقد أُرِّخَتْ بالسنة الثالثة والثلاثين من عهد «أمنمحات الثالث» (١٨١٦ق.م.) وهي تذكار لإصلاح مبنى يُدْعَى «سنبت» أي إن تاريخها ما بين ٦٥ و١٢٥ سنة بعد موت «زفاي حعبي». والظاهر من النقش الذي تركه لنا «أنتف» أنه قد أُرْسِلَ إلى «كرمة» في حملة موفقة، ولكنه يفتخر بأنه قد أُرْسِلَ بسبب امتيازه لتوسيع حدود الملك وما أوتي من كفاية، وليس في مقدوري أن أعرف لماذا أُرْسِلَ إلى هذا المكان إذا كان هناك فعلًا حاكم في «كرمة»؛ فلا يتصور أن يُرْسَلَ إلى هذه الجهة عظيم لمجرد إصلاح مبنى يحتاج إلى عدد قليل من آلاف اللبنات، والتفسير الوحيد المقبول في هذا الصدد على ما يظهر لي هو أن «أنتف» كان قد أرسل لإدارة هذا القطر، وإن هذه اللوحة هي عبارة عن سجل قصير لعمل من الأعمال، وقد نُصِبَتْ في هذا المكان حيث نفذ هذا العمل، وإني أعتقد إذن أن «أنتف» كان أحد نواب الملك العاملين في «كرمة» وكان يقوم بعمله في العام الثالث والثلاثين من حكم «أمنمحات الثالث» ما بين ١٨١٦ق.م. وبين ١٨٨٠ق.م. وهو

آخر تاريخ ممكن لعهد ولاية «زفاي حعبي» وهي مدة قدرها أربع وستون سنة، ولا بد أن نفرض لهذه المدة حاكمًا لم يكن مدفونًا في «كرمة» أما من جهة «أنتف» نفسه فإنه على الرغم من تحديد تاريخ لعهده في «كرمة» فإن هذه الحادثة يمكن أن تكون قد حدثت بين عامي ١٨١٦ و١٨٥٠ق.م. وإن كان من المحتمل أن التأريخ الأخيرة مُبَالَغٌ فيه بعض الشيء. والنقش يقدم لنا نقطة أخرى في اسم المؤسسة «إنبو أمنمحات (جدار أمنمحات) صادق القول»، وذلك أن هذا المكان قد سمي باسم فرد يُدْعَى «أمنمحات» كان قد مات، وعلى ذلك فإنه ليس «أمنمحات الثالث» الذي عُمِلَ في عهده النقش لأن النقش على الأرجح جدًّا بطبيعة الحال كان يُنْسَبُ إلى «أمنمحات الأول»، وعلى ذلك فإن تأسيس هذه النقطة العسكرية في «كرمة» لا بد أن يُنْسَبَ إلى عهده. وقد أخضع «أمنمحات الأول» ثورة كوشية في عام ١٩٧١ق.م. غير أن ابنه «سنوسرت الأول» كان مضطرًّا لإخماد ثورة أخرى في عام ١٩٦٢ق.م. أي بعد تسع سنوات من الثورة الأولى. وكان المركز الإداري المحصن الذي تمثله «الدفوفة الغربية» قد أُقِيمَ إما في نهاية عهد «سنوسرت الأول» أو في أوائل عهد «أمنمحات الثاني» وكانت الجبانة العظيمة التي تعد المركز الهام لدفن المجتمع هناك قد بُدِئَتْ على قدر ما يمكن معرفته الآن بالأمير «زفاي حعبي» عند نهاية حكم «سنوسرت الأول» تقريبًا أو في عهد «أمنمحات الثاني». والظاهرُ أن المؤسسة «إنبو أمنمحات» إذا كانت قد أُسِّسَتْ في عهد «أمنمحات الأول» لم تكن في عهده إلا بمثابة نقطة تجارة كما كانت عليه في عهد «بيبي الثاني»، ولذلك فإن اسم «جدار أمنمحات» يظهر ضخمًا أكثر من اللازم إلا إذا كان هناك جدار شاسع محيط كان قد هدم تمامًا، وعلى ذلك لا يمكن حل هذه المسألة بما لدينا من مادة محفوظة كشف عنها، فالجبانة كما وجدناها لا يرجع تاريخها إلى أكثر من عهد «سنوسرت الأول» وعلى ذلك فإنه لا بد أن نفكر في المقترح القائل بأن اسم «إنبو أمنمحات» يشير إلى «أمنمحات الثاني»، وأن «زفاي حعبي» قد أرسله الملك إلى «كرمة» وأنه هو المؤسس لحامية «كرمة» وهذا المقترح إذا كان صحيحًا فإنه يجعل موت «زفاي حعبي» حوالي عام ١٨٨٠ق.م. أكثر من التاريخ الذي حُدِّدَ لموته فيما سبق، هذا ما علق به الأستاذ «ريزنر» على لوحة «أنتف» والآن يجب علينا قبل مناقشة كلامه أن نضع ترجمه لهذه اللوحة فيما يلي:

> السنة الثالثة والثلاثون الشهر الأول من فصل الصيف اليوم الأول في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «ني ماعت رع» بن «رع» «أمنمحات (الثالث)» العائش أبديًّا، قائمة اللبنات اللازمة للمبنى «سنبت» الذي يقع في

«إنبو أمنمحات المرحوم» وهي التي اسْتُعْمِلَتْ بنشاط الأمير والسمير الوحيد الذي بعثه سيده لأنه كان ممتازًا — لتثبيت حدوده بما لديه من تصميمات ممتازة، المشرف على الخاتم «أنتف» ابن «شم إب» عندما كان مع جنود الحدود الخاصة «بإلفنتين».[٧٥] (عدد اللبنات) ٣٥٣٠٠ (أو ٣١٣٠٥).

وعلى الرغم من أن المنتظر أن ذكر جنود الحدود في «إلفنتين» وكذلك العبارة: «لأنه كان ممتازًا لتثبيت حدوده (أي الملك)» يكون مصدره نقشًا من «إلفنتين» أكثر من نقش مصدره «كرمة»، فإن شواهد الأحوال تدل على أن مصدره كان «كرمة». ومن الْمُحْتَمَلِ أن النشاط البنائي المذكور في هذه اللوحة كما يقول «ريزنر» قد دل على إصلاح في مبنى «كرمة رقم ٢». وكلمة «سنبت» معناها العام «جدار» ولا تعني أية محطة معينة. غير أن عدد اللبنات يتفق مع عمل إصلاح حدث فعلًا في مبنى «كرمة رقم ٢»، وفي الوقت نفسه فإنه يعتبر عددًا ضئيلًا جدًّا لإقامة مبنى في «كرمة رقم ٢» أو «كرمة رقم ١». ويطلق الاسم «إنبو أمنمحات المرحوم» على المستودع التجاري «بكرمة» أو على المستعمرة المرتبطة بها (أي كرمة نفسها)،[٧٦] هذا إلى أن تكوين الاسم نفسه يدل على أنها قد أقيمت في عهد ملك مبكر يُدْعَى «أمنمحات» ويُحْتَمَلُ أنه «أمنمحات» الأوَّل أو الثاني ولذلك سميت باسمه. أما الأستاذ «ينكر» فيسلم[٧٧] بأن مبنى «كرمة رقم ٢» وكذلك المؤسسة الكبيرة «كرمة رقم ١» قد أقامهما «أمنمحات الثالث» غير أن المتون التي لدينا لا تعضد هذا الرأي، ومع ذلك فإنه قد يكون على حق، وذلك لأنه من المحتمل أن «كرمة رقم ١» المتأخرة قد أقيمت في عهد ذلك الفرعون في حين أن المباني القديمة في «الدفوفة» قد أقيمت في بداية عهد الدولة المتوسطة. وهذا الرأي يمكن الأخذ به ما دامت المآخذ الأثرية تعوزنا. وتؤكد لنا المتون على أن الوكالة كانت تقوم بنشاط في عهد حكم الإمبراطورية، وهذا ما تدل عليه كل الأحوال في عهد الدولة الوسطى.

وتدل صفة هذه المؤسسة المحصَّنة التي تُعَدُّ بمثابة مستودع تجاري لا حصن، كما يدل ما نجده من مظاهر النعيم والرخاء في مقابر القوم في هذا العهد، على أن المصري كان يعيش هنا بوصفه تاجرًا مسالمًا، وأنه كان يستغل السكان الأصليين في تجارته. ولم تنتشر المقابر المتأخرة عن عصر ثقافة «كرمة» بعد، غير أنه من المادة التي انتشرت حتى الآن من جبانة «كرمة رقم ٣» نعلم أن تدهورًا حدث في فن بناء المقابر الكومية الشكل وكذلك في الصناعات اليدوية.[٧٨]

وبازدياد الصعوبات في العهد المتوسط الثاني من التاريخ المصري في وجه التجارة مع الجنوب ظهر أمامنا كذلك حالة فقر الأهلين في «كرمة» نتيجة لذلك.

(٣) ويستمر «ريزنر» في تعداد الآثار التي وُجِدَتْ من هذا العصر فيقول: «عُثِرَ على لوحة في هيئة خاتم في «كرمة رقم ٤٠٥» وهو مدفن من أهم المدافن الثلاثة في جبانة «كرمة رقم ٤» وهو على ما يظهر أحد المدافن المبكرة في هذه الجبانة. ويرى «ريزنر» أن العلامات الهيروغليفية التي على هذا الخاتم هي الاسم الحوري للملك «أمنمحات الرابع»[٧٩] وهذا الخاتم كان متآكلًا ويبرهن على أن الدفنة (K 405) كانت قد حُفِرَتْ بعد بداية حكم «أمنمحات الرابع»، ولكن هذه المدة لا تتجاوز عشر سنين من غير شك، وعلى ذلك يمكننا أن نضع حدًّا لتاريخ معقول وهو ما بين ١٨٠٠ق.م. و١٧٩٠ق.م. للعهد الذي يمكن أن يكون قد تُوُفِّيَ فيه الموظف الذي دُفِنَ في الجبانة (KIV). ويلاحظ أن هذا التأريخ يفتح أمامنا إمكانية أن «أنتف» صاحب اللوحة الذي أصلح مبنى «كرمة رقم ٢» قد دُفِنَ في نفس المقبرة (KIV). وألقاب الموظف الذي دُفِنَ في (KIV) كما وصلت إلينا من قطعة من تمثال صغير نسبته إليه هي: الأمير الوراثي والحاكم ...» في حين أن «أنتف» كان يُلَقَّبُ على اللوحة «المشرف على الخاتم» ولكن يلحظ أن اللوحة صغيرة جدًّا وكان الكاتب مضطرًّا بمقتضى المساحة التي أمامه أن يختصر في الألقاب، فمن الممكن إذن أنه كان يحمل ألقاب صاحب التمثال الصغير وغيرها. وفضلًا عن ذلك يمكن أن يحمل التمثال اللقب الذي على اللوحة وألقابًا أخرى هُشِّمَتْ. وأخيرًا يمكن أن نضيف هنا أن «أنتف» قد أتى إلى «كرمة» إما في سنة ١٨١٦ق.م. أو قبلها، وهو يحمل لقب «المشرف على الخاتم» ومن الممكن أنه كان قد أحرز ألقابًا أخرى بين هذا الوقت والتاريخ الذي دُفِنَ فيه إذا كان فعلًا قد دُفِنَ في هذه الجبانة».

والواقع أن قراءة الاسم الحوري بوصفه للملك «أمنمحات الرابع» فيه شك، وبخاصة أن هذا الخاتم لا يحمل على ظهره الإطار العادي والرسم الذي على ظاهر الخاتم على أنه من عهد متأخر[٨٠] وعلى ذلك فإن كل مقترحات الأستاذ «ريزنر» تتلاشى من حيث التأريخ بهذا الخاتم.

(٤) ثم يقول «ريزنر»: «عُثِرَ على تمثال صغير لملك يُدْعَى «سخم رع خوتا وي» في دهليز التضحية للمقبرة (KXB) في الردم في غربي حجرة الدفن الرئيسية، وكذلك عُثِرَ على قطع من تمثال أصغر بكثير من السابق وعلى تمثال الملك «سنوسرت الثالث» على سطح الردم على الجانب الجنوبي للمقبرة الكومية». وتوحيد هذا التمثال بالملك

«سنوسرت الثالث» يتوقف على سطر من النقوش جاء فيه: الإله الطيب «خع ... رع» وعلى رأس تمثال يظهر من ملامحه أنه «لسنوسرت الثالث» كما يدل على ذلك تماثيله في مصر ويظهر لي ذلك مؤكدًا. والعلاقات بين قطع هذا التمثال الصغير والدفنة الرئيسية ليست واضحة. ولكن يمكن أن تُعْتَبَرَ هذه مثل القطع التي وُجِدَتْ في المقبرتين رقم ٣ و٤ في «كرمة» وعلى ذلك فإني أنسبها بالإضافة إلى تمثال «سخم رع خوتا وي» للدفنة الرئيسية في الجبانة (K.X.). وعلى حسب ورقة «تورين» يعتبر «سخم رع خوتا وي» الملك الخامس عشر في الأسرة الثالثة عشرة، وعلى حسب تاريخ هذه الأسرة العام يكون حكمه حوالي عام ١٧٣٠ق.م. تقريبًا، وعلى وجه التقريب يكون قد حكم بعد «سنوسرت الثالث» بقرن. ولما كان تمثاله قد وُضِعَ في حجرة الدفن الرئيسية للمقبرة (K.X.) فإن الرجل الذي دُفِنَ هناك لا يمكن أن يكون قد مات قبل حكم «سخم رع خوتا وي».

(٥) ويقول «ريزنر»[٨١] إنه عثر في المقبرة (KXVI) في ردم حجرة الدفن الرئيسية على قطع كبيرة من إناءء قربان كبير مصنوع من المرمر نُقِشَ على جزء منها نهاية اسم ملكي «مس» كما عثر على تمثال صغير من الخشب له لباس رأس ملكي وصل، هذا إلى قطع من تمثالين «لشخصين عاديين».

وقد قرأ «ريزنر» اسم هذا الملك على أنه «زديومس» غير أن هذه القراءة فيها شك كبير لأن علامة «مس» فيه مهشمة تماما.[٨٢]

ومما سبق نفهم أنه كان يوجد في جهة «كرمة» مستعمرة مصرية قد يجوز أنها ترجع إلى عهد الدولة القديمة، غير أن قيامها الفعلي كان في عهد الدولة المتوسطة، وكان الغرض منها قبل كل شيء التجارة بين بلاد «كوش» ومصر، وتدل شواهد الأحوال على أن هذه التجارة كانت تقوم على مبادئ السلام والمهادنة. والواقع أنه ليس لدينا أية مصادر حتى الآن تدلنا على قيام مشاريع حربية أو على نشوب مواقع مع الأهالي جنوب «سمنة»، ومن ثَمَّ نعرف أن بلاد النوبة السفلى كان يحتلها المصريون احتلالًا عسكريًّا، وأن الأهالي هناك عندما كانوا لا يُسَامُونَ الْخَسْفَ يخضعون تمامًا سياسيًّا لمصر. ولكن من جهة أخرى نجد أن العلاقات بين منطقة «كرمة» ومصر كان قوامها تبادل التجارة السلمي، وعلى ذلك فإن الصعوبات التي كانت تعترض التجارة المصرية في الجنوب وهي التي انتهى أمرها بسقوط المستودع الذي كان في «كرمة» لم يكن سببها يرجع إلى الأحوال في «كرمة» بل إلى الأحوال في مصر نفسها وفي بلاد النوبة السفلى التي كانت تربط الجهتين إحداهما بالأخرى. إذ في تلك الفترة أخذت مصر في التدهور الذي انتهى بسقوط الدولة الوسطى ثم احتلال الهكسوس للبلاد لمدة طويلة كما سنرى بعد.

هوامش

(١) راجع: Buhen, p. 98, 102, ff.

(٢) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٠٤.

(٣) راجع: Roeder, Debod bis Bab-Kalabsche § 450, VI ويحتمل أن هذه الأسماء من الدولة الحديثة.

(٤) راجع: Berlin No. 19500 (Agypt. Inschr. Konig. Mus. Berlin I, 260. f.

(٥) راجع: Lange-Schafer, I, p, 101

(٦) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٥٠ إلخ.

(٧) راجع: J.E.A., 3, p. 100

(٨) راجع: Louvre. I, Nach Abschrift des Berliner W.B

(٩) راجع: Sudan Notes and Records 12, p. 157

(١٠) راجع: Ibid P 69

(١١) راجع: A.S., 33, p.71

(١٢) راجع: Roeder, Debod bis Bab-Kalabsche, pp. 529, 543

(١٣) راجع: Sudan Notes and Records, 12, p. 157

(١٤) راجع: A.Z., 70, p. 88 ff.

(١٥) راجع: A.S., Vol. 33, p. 72

(١٦) راجع: Weigall Report, Pl. LIII

(١٧) راجع: Sudan Notes, 12, p. 159

(١٨) راجع: Roeder, Dekka, p. 369

(١٩) راجع: Sudan Notes, 12, p. 159

(٢٠) راجع: Roeder, Debod bis Bab-Kalabsche, p. 114

(٢١) راجع: A.S., 33, p. 74

(٢٢) راجع: Roeder, Dekka, p. 371.

(٢٣) راجع: Roeder, Debod, p. 113.

(٢٤) راجع: Roeder, Ibid, $ 524

(٢٥) راجع: Buhen, p 201

(٢٦) راجع: Roeder, Dekka, p. 368

(٢٧) راجع: Roeder, Debod, § 544

(٢٨) راجع: Aniba, I, p. 114.

(٢٩) راجع: Emery–Kirwan, p. 8; LAAA, 8, 77.

(٣٠) راجع: Ibid, p. 40

(٣١) راجع: Harvard, African Studies, Vols. V and VI and Kerma I and Il

(٣٢) راجع: Karl Richard Lepsuis, Denkmaler aus Aegypten und Aethiopien Erganzungsband V, bearbeitat Von Walter Wreszinské, Leipzig, (1913), pp. 245,247,

(٣٣) راجع: Kerma, II, p. 556.

(٣٤) راجع: A.S.T., 29, p. 6 ff.

(٣٥) راجع: Kerma, I, pp. 135–189.

(٣٦) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٢٧ إلخ وينطق اسمه كذلك حبزافي.

(٣٧) راجع: Kerma, I, p. 69.

(٣٨) راجع: Kerma, 72.

(٣٩) راجع: Kerma, II, p. 378, Fig. 260 Pl, 70. 3; 72, 1.

(٤٠) راجع: Aniba, I, Gattung IV, p. 91 ff.

(٤١) راجع: Kerma, II, p. 7.ff

(٤٢) راجع: Aniba, I, p. 114

(٤٣) راجع: Flinders Petrie, Prehistoric Egypt, p, 44

(٤٤) راجع: Firth, Arch. Survey of Nubia, IV–V, pp, 272–280

(٤٥) راجع: Lucas. An. Eg. Mat. P. 22

(٤٦) راجع: Reisner, Kerma, II, Pls, 57–60

(٤٧) راجع: Reisner, Kerma, ll,, Pls. 54–56

(٤٨) راجع: Kerma, II, Taf 45–47

(٤٩) راجع: Griffith, Studies, p. 303 f

(٥٠) راجع: Kerma, II, P. 135

(٥١) راجع: Kerma, II, p. 51 P1, 37.

(٥٢) راجع: Aniba, I, p. 116. ff.

(٥٣) راجع: Kerma, I, P1, 19.

(٥٤) راجع: Kerma, I, p. 48.

(٥٥) راجع: Junker, Toschke, p. 10.

(٥٦) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٢٧ إلخ.

(٥٧) راجع: Kerma, I, P1, Xl.

(٥٨) راجع: Tell el-Yahudiya Vasen p. 99.

(٥٩) راجع: Keram, I, Fig, 4, No. 1. p. 27.

(٦٠) راجع: Save-Soderbergh, Ibid., pp. 107- 108.

(٦١) راجع: Reisner, A.Z., 52 p. 34 ff.

(٦٢) راجع: Firth, The Step Pyramid (1936) p. 120.123, 136 f. Pl. 88,ff; 105.

(٦٣) راجع: Pendlebury, Aegyptiaca (Cambridge, 1930), p. 3 Note 6.

(٦٤) كما يزعم «ريزنر» راجع Kerma, II, p. 545.

(٦٥) راجع: Save-Soderbergh, Ibid., p. 109.

(٦٦) راجع: Kubanieh Nord, p. 19 ff.; Tell-el-Yahudiya-Vas en, p. 95 ff. Steindorffi Aniba, I, 12; Kees, Ibid., p. 348, Scharff in OLZ. 29, 89 ff.

(٦٧) راجع: Kerma, I, p. 94 ff.

(٦٨) راجع مصر القديمة الجزء الثالث ص ٢٧٧ إلخ.

(٦٩) راجع: Kerma, II, p. 525, Statuette No. 48 Inscr. No. 49 comp. Kerma I, 85, No. 49.

(٧٠) راجع: Kerma, II, p. 525, Statuette No. 60.

(٧١) راجع: Kerma, II, p. 525, Statuette No. 55 Inscr, No. 47.

(٧٢) راجع: Kerma, I, p. 182.

(٧٣) راجع: Kerma, I, 85, II, p. 522.

(٧٤) راجع: Reisner, Kerma, II, p. 521.

(٧٥) راجع: Scharff in OLZ, 29, p. 96 f; Kees, Kulturgesch., p. 348.

(٧٦) راجع: J.E.A, Vol, 3, p. 187 note 1.

(٧٧) راجع: Tell-el-Yahudiya Vasen, p. 102.

(٧٨) راجع: Kerma, I, 95; II, p. 13 ff.

(٧٩) راجع: Kerma, I, p. 100.

(٨٠) راجع: Kerma, II, pl. 40 and 41 No II, 59.

(٨١) راجع: Ibid, p. 101.

(٨٢) راجع: Save, Ibid, p. 111.